وحدة القصيدة العربية القديمة
بين النظرية والتطبيق

بقلم الدكتور / حمدان عبد الرحمن أحمد
الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد

(أ) وحدة البيت :

كان النقاد القدامى ينظرون الى القصيدة العربية نظرة تقوم على أساس وحدة البيت لا وحدة القصيدة ، فكانوا يفضلون قصيدة معينة لبيت أعجبهم فيها وربما حكموا لشاعر من شعرائهم بالتفوق والسبق بسبب بيت من شعره قد أعجبهم .

يروى أن الحطيئة لما حضرته الوفاة قال : أبلغوا الأنصار أن أخاهم — يعنى حسان بن ثابت — أمدح الناس حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل(١)

ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يقول :

أمدح بيت قول زهير بن أبى سلمى :

تراه اذا ما جئته متهللا
كأنك معطيه الذى أنت سائله(٢)

---

(١) العمدة ٢ : ١٣٩ ابن رشيق القيروانى .
(٢) المصون فى الأدب ٢١ لأبى أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى .

وفى أوائل العصر العباسى نرى أبا جعفر المنصور يسأل أبا دلامة عن أشعر بيت قالته العرب فأجاب :

بيت تلعب به الصبيان وهو قول القائل :

ما أحسن الدين والدنيـــا اذا اجتمعا
وأقبح الـــكفر والافلاس بالرجل (٣)

وظلت هذه النظرة الى وحدة البيت مسيطرة على معظم النقـــاد طوال العصر العباسى حتى ان الحاتمى كان يرى أن أفخر بيت قالتـــه العرب هو قول الفرزدق :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنـــا
وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا(٤)

ومن النقاد العباسيين من دعا الى وحدة البيت ورأى أن الحكم على قصيدة ما بالجودة أو الرداءة انما هو بمقدار ما فيها من أبيـــات فريدة قائمة بذاتها ، وربما يكون ابن سلام الجمحى أول من نص على ذلك صراحة فى طبقاته فى أثنـــاء حديثه عن البيت « المقلد » وهو البيت المستغنى بنفسه المشهور الذى يضرب به المثل (٥) .

ثم تزداد هذه الفكرة وضـــوحا ويكثر أتبـــاعها فى القرن الرابع الهجرى فنرى : أبا بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ يتزعم هذا الاتجاه ويتعصب له حيث يقول :

« ان خير الشعر ما قام بنفسه ، وكمل معنـــاه فى بيته ، وقامت

---

(٣) العمدة ٢ : ١٧ ابن رشيق .
(٤) العمدة ٢ : ١٤٠ ابن رشيق .
(٥) طبقات الشعراء ٣٠٥ ابن سلام .

أجزاء قسمته بنفسه ، واستغنى بعضها لو سكت عن بعض ويستدل على ذلك بقول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب ؟

ويقوم بتحليل هذا البيت ليبرهن بذلك على نظريته فى وحدة البيت فيقول : ألا ترى أن قوله « ولست بمستبق أخا لا تلمه » كلام قائم بنفسه ؟ فان زدت فيه « على شعث » كان أيضا مستغنيا ولو قلت : أى الرجال المهذب وهو آخر البيت مبتدئا به كمثل أردته كنت قد أتيت بأحسن ما قيل فيه (٦) .

وتستمر هذه الفكرة مسيطرة فى القرن الرابع عند كثير من النقاد أمثال : القاضى الجرجانى الذى كان يستقرىء القصيدة ويفتش عن البيت الذى يختار أو البيتين أو عن بيت القصيد ويتخذ من هذه جميعا مقياسا للموازنة بين الشعراء ..

يقول فى الوساطة : وقد تجد كثيرا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومى ، ويغلو فى تفضيله وتقديمه ونحن نستقرىء القصيدة من شعره ، وهى تناهز المائة أو تربى فلا نعثر فيها الا بالبيت الذى يروق أو البيتين — وأنت لا تجد لأبى الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ، ومعان تستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وابداع يطل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لا يصدر الا عن غزارة واقتدار »(٧) .

واستقرت هذه النظرة فى نفوس كبار الشعراء والنقاد فى القرن الرابع حتى انهم كانوا يتخذون من وحدة البيت فى القصيدة معيارا

---

(٦) المصون فى الأدب ٩ : ١٠ العسكرى .
(٧) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٥٤ القاضى الجرجانى .

للفرق بين الكتابة والشعر يقول أبو اسحاق الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ « ان الشعر بنى على حدود مقررة ، وأوزان مقدرة ، وفصلت أبياته فكان كل بيت منها قائما بذاته، وغير محتاج الى غيره الا ما جاءعلى وجه التضمين وهو عيب »(٨) •

ويؤيد المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة هـذا الرأى ويؤكده ويوضح أن الشعر لا يكون شعرا الا اذا قام كل بيت بنفسه حيث يقول: ومبنى الشعر على أنه يقوم كل بيت بنفسه ، غير مفتقر الا غيره الا ما يكون مضمنا بأخيه ، وهو عيب فيه » (٩) •

ويتضح من هذا العرض السريع أن النقـد القديم كان لا ينظر الى القصيدة نظرة كلية ، ولا يحكم عليها من هذا الجانب ، ولا يـكاد يلتفت الى وحدتها العضوية أو الموضوعية أو النفسية أو ما شاكل ذلك من المسميات التى تكلم عنها النقاد المحدثون وانمـا كان ينظر الى كل بيت فيها بوصفه وحدة مستقلة قائمة بذاتها بحيث يجوز تقديمه وتأخيره أو حذفه من غير أن يؤثر هذا فى بنـاء القصيدة •• وكانت القصـيدة عندهم تتفضل غيرها بمقدار ما يوجد فيها من الأبيات الجيدة التى تجرى على لسانهم مجرى المثل •

(ب) التمرد على وحدة البيت :

وعلى الرغم من هذه النظرة الى وحدة البيت لدى عدد من النقاد العباسيين فقد كان هناك من النقاد من تمردوا على هذه الفكرة ونادوا بضرورة الوحدة بين أجزاء القصيدة بحيث تكون أبياتها مترابطة متآلفة لا نفور بينها ولا نشاز وانما تآلف وانسجام •

---

(٨) المثل السائر ٢ : ٤١٤ ابن الأثير •
(٩) مقدمة ديوان الحماسة ١ : ١٨ •

روى الجاحظ عن عمر بن لجأ أنه قال لبعض الشعراء :

أنا أشعر منـــك فقال : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه (١٠) .

ويذكر الجاحظ أيضـــا فى باب « تفضيل اصابة المقـــادير ، وذم الخروج من التعديل » : أن رؤبة عاب شعر ابنه لأنه ليس له قران ولأنه جعل البيت أخا للبيت اذا أشبهه وكان حقه أن يوضع الى جنبه ، وعلى ذلك التأويل قال الأعشى :

أيا مســـمع أقصر فان قصـــيدة
متى تأتكم تلحق بها أخواتها(١١)

ويروى : أن عم الراعى النميرى قال له اينـــا أشعر أنا أم أنت ؟ قال : بل أنا ياعم فغضب وقال : وبم ذاك ؟ قال : بأنك تقول البيت وابن أخيه ، وأنا أقول البيت وأخاه (١٢) .

وكان المبرد يفضل الفرزدق على جرير ويقول فى أسباب ذلك « ان الفرزدق يجىء بالبيت وأخيه ، وجرير يأتى بالبيت وابن عمه (١٣) .

ويتحدث ابن قتيبة عن القضية نفسها فى أثناء حديثه عن الشـــعر المتكلف فيقول :

« وتتبين التكلف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما الى غير لفقه » (١٤) .

---

(١٠) البيان والتبيين ١ : ٣٠٦ الجاحظ .
(١١) المرجع السابق ١ : ٩٨ الجاحظ .
(١٢) الموشح ١٣٤ المرزبانى .
(١٣) المرجع السابق ١١٠ .
(١٤) الشعر والشعراء ١ : ٣٤ ابن قتيبة .

ويعد هذا التمرد من جانب بعض النقاد بداية للثورة على وحدة البيت ودعوة صريحة الى وحدة القصيدة بحيث تكون أبياتها مترابطة متآلفة لا ينكر البيت جاره ولا يقترن بغير الفه •

ويمكن أن نعد هذه الآراء المبعثرة فى كتب النقد القدمية بذورا للدعوة الى وحدة القصيدة العربية عند النقاد القدامى •

(ج) وحدة القصيدة فى النقد القديم :

لعل ابن طباطبا العلوى من أوائل النقاد الذين تنبهوا الى فكرة الوحدة بين أجزاء القصيدة حيث يقول : وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه ،فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل ما قد ابتدأ وصفه ، أو بين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه ، فينسى السامع المعنى الذى يسوق القول اليه ،كما أنه يحترز من ذلك فى كل بيت ،فلا يباعد كلمة عن أختها ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو ويتفقد كل مصراع هل يشاكل ما قبله » (١٥) •

وينادى فى موطن آخر بأن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجا ، وحسنا ، وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معان ، وصواب تأليف حيث يقول :

وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائلة فان قدم بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب اذا نقض تأليفها ، فان الشعر اذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نمطه ، بل يجب أن تكون

---

(١٥) عيار الشعر ١٢٤ ابن طباطبا •

القصيدة كلها كالكلمة الواحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجا ، وحسنا ، وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معان ، وصواب تأليف (١٦) .

ويفهم من هذا أن وحدة القصيدة عند ابن طباطبا تقوم على الربط بين أجزائها ، والملاءمة بين أبياتها مع الاهتمام بالصياغة وقوة النسج، ولذلك يقول شوقى ضيف « وكأن ابن طباطبا تنبه فى دقة الى ما ردده النقاد فى عصرنا من فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة بحيث تصبح محكمة احكاما فلا تخلخل بين المعانى المتعاقبة ولا ممرات ولا خنادق تفصل بينها انما انتظام واتساق والتحام حتى تصبح القصيدة كأنها كلمة واحدة ومعنى واحد » (١٧) .

واذا كان ابن طباطبا قد دعا الى وحدة القصيدة بحيث تتلاءم أبياتها وتتلاحم أجزاؤها فى نظام محكم مترابط فهو لم يشر الى الوحدة العضوية التى اشترطها « أرسطو » فى الأعمال الفنية باستثناء الشعر الغنائى .

أما الذى أشار الى ذلك صراحة وتحدث عن الوحدة العضوية فى القصيدة العربية فهو (الحاتمى) المتوفى سنة ٣٨٨ هـ حيث أعلن « أن القصيدة مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر أو باينه فى صحة التركيب غادر الجسم عاهة تشين محاسنه وتعفى معالم جماله » (١٨) .

أما ابن رشيق القيروانى فهو لا يوافق الحاتمى على الوحدة العضوية فى القصيدة الغنائية ويتخذ لنفسه مذهبا وسطا بين القدامى

---

(١٦) المرجع السابق ١٢٥ ابن طباطبا .
(١٧) البلاغة تطور وتاريخ ١٢٧ د. شوقى ضيف .
(١٨) زهر الآداب ٢ : ٥٩٧ الحصرى القيروانى .

والمعاصرين حيث ينادى بوحدة البيت ــ على ما يبدو ــ فى القصيدة الغنائية بينما يشجع وحدة القصيدة فى الشعر القصصى وهو بذلك يتفق مع أرسطو الذى اشترط الوحدة العضوية فى المسرحية والقصة بينما أعفى الشعر الغنائى منها •

يقول ابن رشيق فى ذلك « ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض ، وأنا أستحسن كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده ، وما سوى ذلك فهو عندى تقصير الا فى مواضع معروفة مثل الحكايات وما شاكلها فان اللفظ أجود هنالك من جهة السرد (١٩) •

ثم يأتى عبد القاهر امام البلاغة العربية فيعقد فصلا فى « دلائل الاعجاز » يتحدث فيه عن الموضوع نفسه تحت عنوان « فى النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع » •

يقول فيه « واعلم أن مما هو أصل فى أن يدق النظر ، ويغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن يحتاج فى الجملة الى أن تضعها فى النفس وضعا واحدا وان يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك ، نعم ــ وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين ، وليس لمن شأنه أن يجىء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به فانه يجىء على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة فمن ذلك أن تزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء معا كقول البحترى :

اذا ما نهى الناهى فلج بى الهوى
أصاخت الى الواشى فلج بها الهجر

---

(١٩) العمدة ٢ : ٢٦١ ابن رشيق •

فهذا نوع ، ونوع منه آخر كقول سليمان بن داود القضاعى :

فبينمـــا المرء فى عليـــاء أهوى
ومنحـــط أتيـــح له اعتـــلاء
وبينمـــا نعمـــة اذ حال بؤس
ويوس اذ ، تعقبـــه ثراء

ونوع ثالث وهو ما كان كقول كثير :

وانى وتهيـــامى بعزة بعـــد ما
تخليت ممـــا بيننـــا وتخلت
لـــكا لمرتجى ظل الغمامة كلمـــا
تبـــوأ منهـــا للمقيـــل اضمحلت

ومنه التقسيم كقول حسان :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفوا
ســـجية تلك فيهم غير محـــدثة
ان الخلائق فاعلم شرها البدع

واذا قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ما تتحـــد أجزاؤه حتى يوضع وضعا واحدا فاعلم أنه النمط العالى والباب الأعظم والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شىء كعظمه فيه (٢٠) .

وواضح من هذا النص أن الوحدة عند عبد القاهر تعنى اتصـــال أجزاء الكلام ولكنه لم يطبقه على وحدة القصيدة بل قصره على الجملة وعلى البيت أو البيتين أو الثلاثة فيما تدل على ذلك استشهاداته له ثم

---

(٢٠) دلائل الاعجاز ٦٤ عبد القاهر الجرجانى .

راح يستعين بموضوعات النحـــو والبلاغة فى تأكيد الترابط وتوضيحه معتمدا على المزاوجة بين الشرط والجزاء وعلى التقسيم وأنواع أخرى لم يسمها لكننا نستطيع معرفتها من أمثلته (٢١) .

أما حازم القرطاجنى فقد كان أكثر دقة فى حديثه عن وحدة القصيدة من سابقيه حيث يقول « اعلم أن الأبيات بالنسبة للشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف ، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلمة المؤلفة من الحروف والقصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفـــاظ .. فـــكما أن الحروف اذا حسنت حسنت الفصول المؤلفة منها اذا رتبت على ما يجب وضع بعضها من بعض على ما ينبغى كذلك يحسن نظم القصـــيدة من الفصـــول الحسان كما يحسن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحسان ، اذا كان تأليفها منها على ما يجب .

وكما أن الكلمة لهـــا اعتباران : اعتبار راجع الى مادتها وذاتهـــا واعتبار بالنسبة الى المعنى الذى تدل عليـــه ، كذلك الفصول تعتبر فى أنفسها وما يتعلق بهيئاتها ووضعها ، وتعتبر بحسب الجهات التى تضمنت الفصول الأوصاف المتعلقة بها .. (٢٢) .

وبذلك يكون حازم أكثر دقة فى هـــذا الموضوع من عبد القـــاهر لأنه يتحدث عن الوحدة فى بناء القصيدة بخلاف عبد القاهر الذى كان يتحدث عنها فى الجملة والعبارة والبيت والبيتين والثلاثة .

« ان نظرة حازم أعم وأعمق وأشمل من نظرات ســـابقيه ومن نظرة عمود الشعر نفسه فى المسألة .

انها تؤكد معرفته لوحدة العمل الأدبى عند أرسطو التى فهمها على

---

(٢١) بناء القصيدة العربية ٣٠٢ د. يوسف بكار .
(٢٢) منهاج البلغاء ٢٩٢ حازم القرطاجنى .

نحو خاص ، ولم يلتزم بها التزاما كاملا فظلت مجردة لا يفهم مدلولها بدقـــه (٢٣) •

(ء) وحدة القصيد فى النقد الحديث :

بعد أن تحدثنا عن وحدة القصيدة عند القدماء ، وذكرنا نصوصا متفرقة تؤكد ايمان البعض منهم بتلك الوحدة ، نتحدث الآن عن هـذه الوحدة فى ظل النقد الأدبى الحديث بعد أن ظلت وحـدة البيت هى السائدة لدى النقاد طوال العصور الأدبية ••

ويعد الشيخ حسين المرصفى أول من تعرض لهـذا الموضوع من أدباء الرعيل الأول فى العصر الحديث حيث يقول فى تعليقه على قصيدة البارودى التى مطلعها :

تلاهـيت الا ما يجن ضـــمير
وداريت الا ما ينـم زفـــير

« أنظر الى هذه الأبيات فى هذه القصيدة فأفردها بيتا بيتا تجـد ظروف جواهر أفردت كل جوهرة لنفاستها فى ظرف • ثم اجمعها ، وانظر جمال السياق • وحسن النسق ، فانك لا تجـد بيتا يصح أن يقـدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث » (٢٤) •

ونظرة الشيخ المرصفى لوحدة القصيدة جعلته سباقا فى هـذا الميدان بين أدباء عصره وجعلت النقاد من بعـده يعجبون به ، ويثنون عليه لا لأنه أتى بشىء جديد لم يسبق اليه ولكن لأنه كان أول من تعرض لهذا الأمر من نقاد جيله •

---

(٢٣) كتاب أرسطو طاليس ١٧٤ د• شكرى عياد •
(٢٤) الوسيلة الأدبية ٢ : ٤٧٩ حسين المرصفى •

يقول الدكتور ، مندور : اننا نحس بشيء يعتبر جديدا كل الجدة في عصر الشيخ المرصفي ، وهذا الشيء هو حديثه عن نسق القصيدة ، وانك لا تجد بيتا يصح أن يقدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث فمثل هذا النقد لم نسمع به في نقدنا الأدبي المعاصر (٢٥) .

وتمر الأيام وتتوالى السنين ، فيزداد ايمان النقاد بفكرة وحدة القصيدة ويطالعنا خليل مطران في مقدمة ديوانه بقوله :

« هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المنفرد ولو أنكر جاره ، وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، والى جمال القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها ، وتوافقها مع ندور التصوير ، وغرابة الموضوع كذلك حاولت أن أصنع شعري (٢٦) .

ويتضح من هذا النص أمران :

الأول : الثورة الحادة على نظرة النقاد الى وحدة البيت حتى ولو أنكر جاره وشاتم أخاه .

الثاني : ان رأيه هذا ينطبق على وحدة الموضوع لا على الوحدة العضوية .

أما صاحبا الديوان : العقاد والمازني فقد كانا أكثر فهما للوحدة العضوية وأكثر اقترابا منها من مطران حيث يقولان : « ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه

---

(٢٥) النقد والنقاد المعاصرون ٢٢ د. محمد مندور .

(٢٦) ديوان خليل مطران ١ : ٩ .

بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها فالقصيدة كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه ، الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها ولا قوام لفن بغير ذلك » (٢٧) .

فصاحبا الديوان ينظران الى القصيدة بوصفها عملا متلاحم الأجزاء فهى كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه وهذه هى الوحدة العضوية فى مفهوم النقد الحديث ..

أما شيخنا الدكتور محمد نايل فيثور على هؤلاء النقاد الذين يخضعون القصيدة الغنائية لثقل الوحدة العضوية مع أن أرسطو قد أعفاها من ذلك ويتساءل فى حدة « لست أفهم لم يخالف هذا النقد الحديث رأى أرسطو ويضع الشعر الغنائى تحت ثقل هذه الوحدة العضوية بينما أعفاه « أرسطو » من هذا الثقل وقيوده (٢٨) .

ثم يضيف : « ان القصيدة فى الشعر الغنائى لا ينبغى أن تدعى لهذه الوحدة التى يفرضها عليها هؤلاء العضويون ، لأن الشعر الغنائى هو تصوير مشاعر الانسان نحو الطبيعة ومجاليها والحياة وأسرارها ، والأيام وأحداثها والمجتمعات وأحوالها فان شيئا من ذلك لا يعرف قانون الوحدة العضوية حتى نلزم ذلك الشعر بمحاكاة شىء غير موجود اذ أن الحياة قد وضعت الماء بجوار اليابس والمر الى جوار الحلو » .

---

(٢٧) الديوان فى النقد والأدب ٢ : ٢٦ .
(٢٨) اتجاهات وآراء فى النقد الحيث ٥٣ د. محمد نايل .

وبعد أن يعلن هذا الرأى يدعو الى هدم الوحدة العضوية بمعناها الضيق الذى يصيح به العضويون .

لكنه يستدرك : ونحن حين نحاول هدم هـذه الوحدة لا نهـدف أو ندعو الى جعل القصيدة بددا متنـاثرا من الأفـكار والأجزاء التى لا علاقة بينها فان لنا فى وحـدة القصيدة أصولا ومقـاييس قد تكون أدق وأشق من هذا التركيب العضوى (٢٩) .

أما الأصول التى ارتضاها بديلا للوحدة العضوية فتقوم على الآتى:

أولا : مراعاة الترابط والتلاؤم بين عناصر القصيدة من أفـكار وأجزاء بحيث لا يشعر الذوق بالبعـد والقطيعة بين الفكرة والفكرة أو الصورة والصورة ويستوى بعد هذه الرعاية أن يكون موضوع القصيدة واحدا أو تتعـدد موضوعاتها فى اطار غرض واحـد كما كان يفعـل الجاهليون .

ثانيا : أن يكون فى القصيدة تجانس فى وحدة الروح وحـرارة المشاعر فلا يبدأ الشاعر قويا ثم يضعف أو فاترا ثم يقوى .

ثالثا : أن تتجانس الصياغة الفنية فى أسلوب القصيدة بحيث تكون على مستوى واحد فلا تقوى الصياغة فى جزء وتضعف فى آخر ..

هذه هى المعايير التى ارتضاها الدكتور نايل أساسا لوحدة القصيدة وهى معايير دقيقة ولكنها تتسع لتشمل العديد من القصـائد العربية فى الشعر العربى كله .

(ك) الوحدة العضوية فى القصيدة القديمة :

عرفنا أن أكثر نقـادنا القدامى كانوا يفاضلون بين الشعراء على

---

(٢٩) المرجع السابق ٥٤ وما بعدها .

أساس وحدة البيت لا على أساس وحدة القصيدة وربما فضلوا قصيدة على أخرى بسبب بيت جيد ورد فيها ولعل السبب فى ذلك راجع الى أن العرب كانوا يميلون الى الايجـاز كما كانوا يهتمون بالمثـل السائر ، والتشبيه النادر والقول البليغ ، ولذلك ينقل المرزوقى فى مقدمة الحماسة قولهم « الشعر ثلاثة مثل سائر ، وتشبيه نادر ، واستعارة قريبة »(٣٠)•

ومهما يكن السبب فان الغالبية العظمى من النقاد القدامى كانوا ينظرون الى القصيدة العربية على أنها تقوم على وحدة البيت،وقل فيهم من كان ينظر الى القصيدة نظرة كلية ويحكم عليها من هذا الجانب •

ولكن هل معنى ذلـك أن القصـيدة العربية القديمة كانت بددا متناثرا لا ترابط بين أبياتها ولا تماسك بين أجزائها ؟ وللاجابة على هذا التساؤل لابد أن نقرر أن هذا كان ينطبق بالفعل على معظم قصـائد الشعر العربى القـديم ولا تكاد توجد الوحدة العضـوية الا فى النذر اليسير وبخاصة عند بعض الشـعراء الذين كانوا ينزعون فى شـعرهم نزعة قصصية كالحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وابن الرومى وغيرهم •

والمتأمل فى الشعر الجاهلى وهو المثل الأعلى للشعر الجيد فى نظر النقاد القدامى يجد أن معظم القصائد فيه تقوم على أسـاس وحـدة البيت لا وحدة القصيدة ••

ولنضرب مثلا بأبيات وردت فى معلقة زهير التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنـة لم تـكلم
بحـومانة الـدراج فالمتثلم

يقول فيها :

---

(٣٠) مقدمة ديوان الحماسة ١ : ١٠ شرح المرزوقى •

سئمت تكاليف الحياه ومن يعش
ثمانين حولا ــ لا أبالك ــ يسأم
وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمده ذما عليه وينــدم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم(٣١)

انظر الى هذه الأبيات التى هى جزء من معلقة زهير فسوف تجد كل بيت منها مستقل فى معناه لا علاقة له بالبيت الذى قبله أو الذى يليه ..

ويجوز فى هذه الأبيات التقديم والتأخير والحذف من غير أن يختل المعنى أو تتأثر بقية الأبيات بذلك .

ولما كان الشعر الجاهلى هو المثل المحتذى لدى الشعراء والقاد القدامى فقد تأثروا جميعا به ولم يستطيعوا التخلص من قيوده .. ومن ثم كانت دعوة كثير من النقاد الى مرعاة وحدة البيت فى الحكم على الشعر لا وحدة القصيدة ــ ولكن هل معنى ذلك أن القصيدة

---

(٣١) انظر معلقة زهير فى شرح القصائد السبع الطوال ٢٣٧ . شرح ابن الأنبارى .

العربية القديمة قد خلت تماما من الوحدة سواء أكانت موضوعية أم عضوية ؟

وللاجابة على ذلك نقول : ان بعض القصائد العربية القديمة اشتملت على هذه الوحدة وبخاصة عند نفر من الشعراء كانوا يتجهون فى شعرهم وجهة قصصية : أمثال : تأبط شرا والحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد وابن الرومى فجاءت بعض قصائد هؤلاء مترابطة متماسكة بحيث لا نستطيع أن نقدم أو نؤخر أو نحذف بعض أبياتها من غير أن يختل المعنى ويتغير .

وقد أورد الدكتور : يوسف بكار (٣٢) قصيدة جاهلية منسوبة الى تأبط شرا أو الى ابن أخته تتجلى فيها الوحدة العضوية وموضوع القصيدة يدور حول سيد من سادات قومه ، قتلته هذيل . فوقعت الفاجعة على ابن أخته وقوع الصاعقة فترك الخمر وودع اللهو واستعد للغزو وادراك الثأر وحارب العدو وأدرك ثأره ونال وطره فطابت له الحياه وحلت له الخمر وعاش فى سعادة غامرة .

والقصيدة هى :

ان بالشعب الذى دون سلع
لقتيلا دمه ما يطل
قذف العبء على وولى
أنا بالعبء له مستقل
ووراء الثأر منى ابن اخت
مصع عقدته ما تحل
مطرق يرشح موتا كما أط
رق أفعى ينفث السم صل

---

(٣٢) بناء القصيدة ٢٢١ .

خبر مانابنا مصطمئل
جل حتى دق فيه الأجل
بزنى الدهر وكان غشوما
بأبى جاره ما يزل
شامس فى الظل حتى اذا ما
ذكت الشعرى فبرد وظل
ظاعن بالحزم حتى اذا ما
حل حل الحزم حيث يحل
غيث مزن غامر حيث يجدى
واذا يسطو فليث أبل
مسبل فى الحى أحوى رفل
واذا يغزو فسمع أزل
وله طمعان أرى وشرى
وكلا الطعمين قد ذاق كل
يركب الهول وحيدا ولا يصـ
ـحبه الا اليمانى الأفل
وفتو هجروا ثم أسروا
ليلهم حتى اذا انجاب حلوا
كل ماض قد تردى بماض
كسنا البرق اذا ما يسل
فأدركنا النار منهم ولما
ينح ملحبين الا الأقل
فاحتسوا أنفاس نوم فلما
هموا رعتهم فاشمعلوا
فلئن قلت هذيل شباه
لبما كان هذيلا بفل

وبمـا أبركهـــا فى منـاخ
جعجـع يثقب فيـــه الأظـل
وبمـا صـبحها فى ذراهـا
منـه بعـد القتل نهب وشـل
صـليت منى هـذيل بخـرق
لا يمـــل الشر حتى يمـلوا
ينهـلا لصـعدة حتى اذا مـا
نهلت كان لهـا منـــه عـــل
حلت الخمـر وكانت حراما
وبـلأى ما ألمـت تحـــل
اسـقينها يا ســواد بن عمرو
ان جسـمى بعـد خـالى لخل
تضحك الضبع لقتلى هـــذيل
وترى الذئب لهـــا يســـتهل
وسـباع الطير تهفو بطـانا
تتخطاهم فمـا تسـتقل(٣٣)

« هذه القصيدة بأجزائها السبعة متكاملة البناء ، مترابطة الأعضاء» يؤدى كل منها الى الذى يتلوه ويشاركه فى الوظيفة الكلية ذات الدفع الواحد ، والمغزى الواحد انتقل الشاعر فيها من الحـديث عن فداحة الخطب وعظم المسئولية التى تكفل بحملها الى الحديث عمن فقد معددا صفاته التى من أجلهـا كان الخطب فادحا ، والتى من أجلها سـيكون الاستعداد كبيرا ، والتضحيات جسيمة ، وهو ما أتى به بعد تعداد مناقب القتيل مباشرة .

---

(٣٣) انظر القصيدة فى مجلة المجلة العدد ١٤٨ سنة ١٩٦٩م .

ثم انتقل الى تبين كيفية الهجوم على الخصم ، وادراك الثـأر ، وراح بعد أخذ الثأر والانتصار يصور ما يليهما عادة من تعليل وتبرير وافتخار وزهو ونشوة وشماتة بالعدو • كل هذه الأمور صورها الشاعر فى قصيدته فجاءت منسجمة فى اتجاهها الواحـد ، وعاطفتها المركزية ، وكان ما فيها من صـور وايحـاءات لفظية يؤدى وظيفته من خـلال احساس واحد ، ووظيفة كبرى لتصل فى النهاية الى احـداث أثرفنى واحد لا تشتت فيه فى نفس القارىء •

لم تقف القصيدة عنـد الرثاء بل تناولت أفكار، آخر ضمها خيط نفسى واحد من أولها الى آخرها لم يخرج فيهـا الشاعر عن الداعى الذى دعاه الى نظمها ولا عن غايته أيضا ••

الوحدة العضوية ماثلة فيهـا بوضوح بحيث لا يمكن أن تزحزح أى جزء فيها من مكانه الى أى مكان آخر (٣٤) •

وثمة قصيدة أخرى للحطيئة لا يختلف النقـاد فى أن الوحـدة العضوية ماثلة فيها ، وهى القصيدة التى يتحـدث فيها الحطيئـة عن الكرم العربى فى صورة واقعة حـدثت لبعض الأعراب فى البـادية يقول فيهـا :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخى جفوة فيه من الأنس وحشة
يرى البوس فيها من شراسته نعمى
وأفرد فى شـعب عجوزا ازاءها
ثلاثة أشـباح تخـالهم بهمـا

(٣٤) بناء القصيدة ٣٢٣ د• يوسف بكار •

حفـــاة عراة ما اعتدوا خبز ملة
ولا عرفوا للبرمذ خلقوا طعمـــا
رأى شبحا وسط الظلام فراعه
فلما رأى ضيفا تشمر واهتمـــا
فقال : هيا رباه ضيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه تالليلة اللحمـــا
فقـــال ابنه لمـــا رآه بحـــيرة
أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا
يظن لنـــا مالا فيوسعنا ذمـــا
فروى قليـــلا ثم أحجـــم برهة
وان هو لم يذبح فتـــاه فقدهما
فبيناهما عنت على البعـــد عانة
قدانتظمت منخلف مسحلهانظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
على أنه منهـــا الى دمها أظمـــا
فأمهلهـــا حتى تروت عطـــاشها
فأرسل فيهـــا من كنانته سهما
فخرت نخوص ذات جحش سمينة
قد اكتنزت لحما وقد طبقتشحما
فيـــا بشره اذ جرها نحو أهله
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى
وباتوا كراما قدقضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرما وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشـــاشته أبا
لضـــيفهم والأم من بشرها أما

يصور الحطيئة فى هـذه القصيدة قصـة أعرابى بائس يعيش فى الصحراء ، قد قسا عليه الفقر ، واشتد عليه الجوع فهو لم يذق الطعام منذ ثلاثة أيام ولذا فقد ربط بطنه بعصابة حتى يتمكى من احتمال آلام الجوع •

وقد اكسبته الحياه فى الصحراء غلظة فى الطبع فنفر من النـاس وابتعد عنهم وعاش وحيدا فى هذه الفلاة الموحشـة •

وهو على فقره وسوء حاله يعول أسرة مكونة من زوجه العجوز ، وثلاثة أطفال هدهم الجوع ، وظهر عليهم الهزال ، وبدوا فى صـورة أشباح يظنها الرائى حملانا صغيرة عجفاء •

وهم مع جوعهم وهزالهم حفاة عراة لم يتغذوا بذلك الخبز الشهى الذى أنضجته النار والذى يسميه البدو « خبز الملة » كذلك لم يذوقوا فى حياتهم طعم الخبز المصنوع من دقيق القمح ••

ولمـا كان الرجل وحيدا فى هذه الصحراء الموحشـة مع أسرته البائسة فلابد أن يسهر الليل لحمايتهم مما قد يتعرضون له من مخاطر وأهوال فى أثناء نومهم فربما يهجم عليهم ذئب ، أو يغتالهم وحش ، أو تنهشهم حية ولذا فهو ، حذر • ينام باحدى مقلتية ، ويتقى بأخـرى المنايا ، وهو يرهف سمعه لأى صوت ويحد بصره لأى شبح •

وبينما هو على هذه الحالة من اليقظة والانتباه اذ رأى شبحا قادما وسط الظلال فارتاع وتوقع شرا ، واستعد لقتـاله ، ولكنه أمعن النظر فاذا الشبح ضيف قادم فتهيأ لاستقباله •

وراح يهتف فى أعماقه : رباه : ضيف قادم ولا طعام له • بعزتك وجلالك لا تحرمه هذه الليلة من اللحم •

ويبدو أن ابنه كان على شىء من الفراسة والذكاء فأدرك على الفور حيرة أبيه فقال له : ياأبتى : لا تأخذك الحيرة ويسر له الطعام ولو كان

بذبحي ، ولا تعتذر بالفقر خشية أن يظن الضيف أن لنا مالا فيبالغ في ذمنا .

ويفكر الأب السخى فى كلمات ابنه البار ، ويوشك أن ينفذ ما عرضه عليه ولكن عاطفة الأبوة تجعله يتردد .

وبينما هما على هذه الحالة والقلق اذ تراءى على البعد قطيع من حمر الوحش يقوده الى الماء حمار وحشى سمين فأذهلتهم المفاجأة ، وكأن الله قد استجاب لدعوة الأعرابى الشهم فتسلل الى القطيع فى خفة ورشاقة وأمهله حتى ارتوى من الماء ثم أطلق سهما من كنانته فأصاب أتان سمينة فى مقتل فخرت على الفور صريعة تتشحط فى دمها . فما كان أشد فرحة الأعرابى وهو يجرها الى أهله ، وما كان أشد سرورهم وهو يشاهدون الصيد السمين والدماء تنزف منه .

وما لبثت الأسرة أن وفت حق ضيفها ، وباتت قريرة العين راضية . وبات الرجل وزوجه يرعيان الضيف ويقدمان له الطعام ويحتفيان به أيما احتفاء .

والقصيدة تتكون من أربعة مقاطع ولكنها متكاملة متماسكة ففى المقطع الأول : صور الشاعر الأعرابى وأسرته تصويرا موجزا دقيقا حيث ذكر فقره وجوعه ، وجفاء طبعة وهزال أطفاله وما بهم من عرى وجوع ولم يغفل وصف الصحراء الموحشة التى كانوا يعيشون فيها .

وفى المقطع الثانى يتحدث عن قدوم الضيف على تلك الأسرة البائسة وما خلفه من موقف عصيب أوقع ربها فى حرج مما دفع ابنه أن يعرض عليها نفسه ليذبحه اكراما للضيف فيتردد الأب وتتنازعه عاطفتان : عاطفة الأبوه ، وعاطفة الواجب .

وعندما تتعقد الأمور وتتأزم يأتى المقطع الثالث من القصيدة بالحل الذى تمثل فى سرب من الحمر الوحشية يريد الماء ، فتسلل اليه الأب . وعاد ظافرا بصيد ثمين أطعم منه أهله وضيفه .

أما المقطع الأخير : فيصور سرور الأسرة وسعادتهم بعد أن أكرموا ضيفهم ، وأنقذوا شرفهم ، وتمتعوا مع الضيف بعشاء شهى سمين •

« لقد جاءت أجزاء القصيدة مترابطة ومبنية بناء عضويا دقيقا • تضافرت كلها لتؤكد حرص العربى القديم على اكرام الضيف بشتى الوسائل الممكنة ولو كان معدما فقيرا كما أنه يربطها احساس واحد ، وشعور مشترك ، وتجمعها وحدة عاطفية بحيث ان الاخلال بأى جزء منها يبددها كلها ويجعلها مفككة الأوصال ، مهتزة البنيان ، بل يلغيها الغاء كاملا ••

لقد ساعد العنصر القصصى وما فيه من حوار على ترابط القصيدة ووحدتها العضوية كثيرا ولم لا ؟ فالقصائد الغنائية ذات العناصر القصصية أو الدرامية تتحقق فيها الوحدة العضوية أكثر من غيرها ويكون الطابع القصصى بسرده ، وحواره عاملا كبيرا فى تحقيقها (٣٥) •

وليس الحطيئة بدعا فى هذا الباب فهناك شعراء آخرون نزعوا هذا المنزع وكان لهم دور فعال فى تحطيم وحدة البيت والاتجاه الى وحدة القصيدة سواء أكانت وحدة موضوعية أم عضوية ويتمثل ذلك فى شعر أولئك الذين كانوا يعتمدون فى قصائدهم على الحوار والأسلوب القصصى فساعدهم ذلك على الوحدة فى قصائدهم •• ومن أبرز هؤلاء : عمر بن أبى ربيعة المخزومى وبشار بن برد وابن الرومى ولكل منهم قصيدة أو أكثر تتجلى فيها الوحدة العضوية •

د • حمدان عبد الرحمن أحمد

---

(٣٥) انظر : النقد الأدبى الحديث ٤٦٣ د• محمد غنيمى هلال •
وقضية الشعر الجديد ٢٠٠ د• محمد النويهى •
وفصول فى الشعر ونقده ٢٩٨ د• شوقى ضيف •
وبناء القصيدة فى النقد القديم ٣٤١ د• يوسف بكار •